دراسة التاريخ
عند أرنولد توينبي

للدكتور اسحق عبيد

دراسة التاريخ عند ارنولد توينبي

بقلم : الدكتور اسحق عبيد

ان « دراسة التاريخ » لأرنولد توينبى دراسة عملاقة تقع فى اثنى عشر جزءا ، وتضم بحرا من المادة التاريخية على النحو الآتى :

١ ــ يقسم الكاتب مادته التاريخية الى وحدات يطلق على كل منها لفظة « مجتمع » ، وهى تتمثل عنده فى خمسة : مجتمع أوربا المسيحى ، مجتمع الشرق المسيحى (البيزنطى) ، مجتمع العالم الاسلامى ، المجتمع الهندوكى ، ثم مجتمع الشرق الاقصى (١) . وهذه المجتمات الخمسة ما زالت باقية كحضارات .

٢ ــ هنالك أيضا مخلفات « متحجرة » لمجتمعات قد بادت : من ذلك مجتمع النصارى من المنافزة والنساطرة ، والمجتمع اليهودى ، الى

---

(١) Toynbee, A. A Study of History, Vol. I, pp. 34-35 :
«We can hardly advance further in our search for an ..... «Intelligible field of Study" without reviving or inventing some name to denote our society as a whole and to disting wish it from other representatives of the species ..... it seems preferable to revive the name « Western Christendom » ..... On this plane, we can distinguish unmistakably the presence, in the world of today, of at least four other living societies of the same species as ours : Orthodox Christian or Byzantine Society ..... an Islamic Society ..... a Hindu Society ... a Far Eastern Society ».

جانب وحدات أخرى متنوعة من البوذيين والجانيين فى الهند (٢) .

٣ ــ يرى الكاتب فى الاختلافات والعلاقات بين هــذه « الحضارات » الخمس اختلافات « مسكونية » ، بينما يطلق على الاختلافات فى داخل اطار « الحضارة » الواحدة ، مثل الاختلافات بين اسبرطــة وأثينا مثلا ، اختلافات « ابروشية » ، أى داخلية (٣) .

٤ ــ ان حقل الدراسة التاريخية متسع للغاية ولا حدود له ، ولكن على المؤرخ أن يستبصر ويميز الوحدات الحضارية ويقــوم بدراســة العلاقات على المستويين السابق ذكرهما . ويركز توينبى اهتمامــه على مجتمع غرب أوربا « المسيحى » فيدرسه دراسة تراجعية حتــى يصل الى جذوره الأولى . ثم يطبق الــكاتب نفس المنهــج علــى الحضارات الأربع المتبقية ، التى هى أكثر قدما من حضــارة غرب أوربا ، ويفيض فى دراسة العلاقات بين هذه الحضارات الخمس (٤).

٥ ــ تسير هذه الدراسة وفقا لمفاهيم يحددها الكاتب هى :

(أ) فكرة البنوة والأبوة : المتمثلة فى العلاقة بين مجتمع غــرب أوربا والمجتمع الهلينى ، فلقد اشتق الأوربيون كيانهم التاريخى من المجتمع الهلينى . غير أن هنالك بعض المجتمعات التى لا تنتمى « بالبنوة » الى مجتمع آخر ، ويطلق الكاتب على هذه المجتمعات اسم « مجتمعات ملكيصادق » . كما أن هنالــك

---

(٢) Ibid., p. 35 : « Fossiled relics of similar societies now extinct ... »..

(٣) Ibid., p. 56 : « For the advancement of historical knowledge, it seems desirable that our historians should distinguish the **Parochial** relations between states within societies from the **œcumenical** relations between the sociaties themselves ».

(٤) Ibid., p. 43 : « in the process of tracing the history of our Western Society backward towards its origins, we strike upon the last phase of another society of the same kind, the origins of which evidently lie considerably farther back in the past » .

بعض المجتمعات التى لا تجد من يأخذها « كأب » (٥) .

(ب) فكرة « المدنية » المقابلة « للبدائية » : فالمجتمع اما بدائى أو متمدين . وغالبية المجتمعات بدائية ، وهى صغيرة المساحة جغرافيا ، قليلة السكان ، قصيرة الأجل ، تلقى نهايتها غالبا بطريقة عنيفة على يد مجتمع متمدين أو متبربر . أما «المدنيات» فهى أقل عددا من « البدائيات » ولكنها أوسع مساحة ، وتنبنى الوحدة فيها لا على الفرد وانما على الطبقة (٦) .

(ج) فكرة « أوقات الاضطراب » (Interregnum) وهى الفترة الفوضوية التى تأتى بين تآكل أحد المجتمعات وقيام مجتمع آخر وفق مفهوم « البنوة » . ومن أبرز الأمثلة على هذا فترة العصور الوسطى « المظلمة » التى تقع بين وفاة الهلينية وقيام مجتمع غرب أوربا المسيحى ، وهى الفترة التى بلغ فيها العجز فى العالم الهلينى مداه . فلما أن زحفت جحافل البرابرة على هذا العالم وجدوه جثة هامدة تماما ، فأخذوا فى نهش تلك الجثة كما تفعل النسور مع الجثث . ويصور الكاتب هذا

---

(٥) Ibid., p. 44 : « The chapters in the history of one and the same society resemble the successive experiences of a single person ; the «affiliations» and « apparentations » between one society and another resemble the relations between parent and child ».

(٦) Ibid., p. 148 : « We can at once remark a specific difference of a purely quantitative kind. The number of known civilizations is small. In a survey of human societies in all parts of the world in every age from the present to the remotest past on which our modern Western Archaeology yet throws any light, we have succeeded in collecting only twenty-one specimens of civilizations, and we have been compelled to concede that no less than ten of these twenty-one may possibly turn out not to be distinct and separate specimens in their own right. The number of known primitive societies is vastly greater. In 1915 three Western anthropologists ..... srew up a list of about 650 societies ..... ».

الموقف بالآتى : « لم يكن البرابرة الذين ساقتهم الى الامبراطورية الرومانية ريح « تحركات الشعوب » هم الذين كتبوا بداية حياتنا الدينية . بل انهم لم يقوموا حتى بدور ذكور النحل التى لا يسمح لها بالاقتراب من الخلية بعد أن يقوموا بوظيفتهم الوحيدة ألا وهى اخصاب ملكة النحل،ذلك لأن الكنيسة كانت بالفعل قد حملت منذ زمن ، وكان الجنين قد اكتمل عندما التقت الكنيسة بالبرابرة . كما أن القضاء على تلك الغزوات المتبربرة الذى تم فيما بعد لا صلة له بمولد المجتمع الغربى . ان الذى جعل تحركات البرابرة شيئا محسوسا هو أنهم كانوا على مقربة من المسرح وقت وفاة الحضارة الهلينية . ولكن لا يمكن أن يزعموا لانفسهم بأنهم قد كالوا للهلينية حتى الضربة الأخيرة ، لأنه فى الوقت الذى كان هؤلاء البرابرة يجتاحون الامبراطورية الرومانية ، كان المجتمع الهلينى يلفظ أنفاسه الاخيرة ، وكان المنتحر يموت من الجروح العميقة التى أصاب بها نفسه فى أوقات المتاعب لقرون خلت . وعلى هذا فان البرابرة ما كانوا أبدا قتلة ذلك الميت « العظيم » ، وانما اقتصر دورهم على القيام بدور النسور التى نهشت الجيفة ، لا بل كانوا كالديدان التى كانت تتغذى على هذا العفن . ان ظروف التدهور فى المجتمع الهلينى التى

أتت بالبرابرة على مسرح الأحداث هى التى حددت مدة وجودهم فى مرحلة عابرة من الانحلال والتآكل ، لأن هذه الفترة الانتقالية بفسادها وتآكلها هى البيئة الوحيدة التى كان ممكنا لأمثال البرابرة أن يعيشوا فيها وابانها (٧) » .

(د) فكرة البروليتاريا الداخلية ، وهى مجموعة الأفراد داخل المجتمع الذين لا يدينون لهذا المجتمع بشىء سوى وجودهم الفيزيقى . وقد يقدر لهذه المجموعة من البروليتاريا أن تصبح العامل المهيمن على هذا المجتمع الذى تنتمى اليه عن طريق « البنوة » : مثال ذلك الجماعة المسيحية التى ظهرت فى وسط المجتمع الهلينى وقت أفول شمس الهلينية . فلما أن فقد ملح الهلينية مذاقه ولم يعد يملح ، لم تعد الهلينية بقادرة على أداء وظيفتها الأبوية التى كانت تضطلع بها منذ زمن بعيد كمعلم للبشرية . وتدهورت الأحوال حتى لم تعد الهلينية سوى « أقلية متسودة » تضغط على البروليتاريا فى عالمها السفلى ،

---

(٧) Ibid., pp. 61-62 : « In reality, the Barbarians who were deposited in the Roman Empire by the Volkerwanderung were not the authors of our spiritual being. They were not evan drones who were no longer permitted to cumber the hive after they had performed their sole function of fertilising the queen-bee ; for the Church was already great with child when she encountered them, and the subsequent extirpation of the Barbarians had nothing to do with the genesis of our Western Society. The Barbarians made their Passage felt by being in at the death of the Hellenic Society ; but they cannot even claim the distinction of having delivered the death blow, for by the time when they overran the Roman Empire, the Hellenic Society was already moribund - a suicide slowly dying of wounds self-inflicted during a « Time of Troubles » centuries before. Thus the Barbarians were not the assassins of the mighty dead. They were merley the vultures feeding on the carrion or the maggots crawling in the carcass. And the very process of dissolution which had brought them on to the scene determined the duration of their existence ; since this transitory interregnum of corruption and decay was the only environment in which they were able to thrive ... ».

ولم تعد الأخيرة طيعة بعد . والبروليتاريا الداخلية فى حالة الهلينية هى الكنيسة المسيحية التى جعلت تتكون من تحت الأرض حتى قدر لها أن تبتلع الإمبراطورية كلها . وأصل هذه الكنيسة التى انتصرت على الهلينية وامبراطوريتها نفر من المبشرين الوافدين من المشرق ومن جماعة العبيد وصيادى السمك وهم من بين الجماعات التى كان الاسكندر المقدونى قد أخضعها لسلطان الهلينية (٨) .

(هـ) فكرة البروليتاريا الخارجية، ومن قبيلها حركة هجرات الشعوب المتبربرة التى كانت تهيم على وجهها وقت احتضار الحضارة الهلينية . ان القبائل الجرمانية والسلافية والسرماتية والهونية هى البروليتاريا الخارجية التى كانت خاضعة لسلطان الحضارة الهلينية الرومانية ، ثم تحركت فوصلت وقت وفاة الحضارة الهلينية ، ثم أقامت لنفسها ممالك على نفس التربة الهلينية ، ويحلو لأصحاب هذه الدويلات المتبربرة أن يطلقوا عليها « عصر البطولة » .

ان البروليتاريا الخارجية والبروليتاريا الداخلية تتضافران فى

---

(٨) Ibid., pp. 53-57 : « When the salt of the Hellenic tradition had lost its savour, so that « the heirs of the Kingdom of Hallenism » had ceased to perform their fathers' function as pioneers in one of the great experiences of Humanity and had generated into a « dominant minority », holding down by might and main a proletarian underworld which no longer voluntarily followed their lead, ... The Roman « Universal State » incorporated in itself the whole of the disintegrating Hellenic Society — « the dominant minority » which was maintaining itself on the surface, « the internal proletariat » wihch was pressing up from below ..... The « Catholic Church » in its first phase conformed to the pattern of the Roman political universe by incorporating into itself the whole of the « internal proletariat » ... The Church's hold over the affections and the allegiance of the " Internal Proletariat " was far greater than the Empire's hold over either portion of the proletarian underworld ..... ».

الاجهاز على المجتمع الأب الذى كان يسيطر عليهـا ، وذلـك لـكى تحلا محـله (٩) .

(و) فكرة الدولة العالمية والكنيسة العالمية ، بمفهـوم المؤسسات التى تضم بين جنباتها كل مناحى الحياة السياسية والـدينية للمجتع الذى تقوم فيه هذه المؤسسات

(ز) فكرة المجتمعات التى كانت متمدينة على زمانها ثم بادت أو تحجـرت : من قبيل ذلك الحضـارة السـومرية والمينوية والحيثية والبابلية والاندينية والمكسيكية والمصريـة (١١) . ويطلق الكاتب على هذه الحضـارات البائدة جميعـا لفظـة (Fossils) . ويرى توينبى فى الحضارة المصرية أم الحضارات التى عاشت ردحا من الزمن أطول من عمر أية حضارة أخرى

---

(٩) Ibid., p. 58 : « A third phenomenon which is associated with the Apparentation-and-Affiliation of the Hellenic and the Western Society is the Volkerwanderung in which « the external proletariat » of the Hellenic Society came down in spate from the no-man's - land beyond the frontiers of the Roman Empire - Germans and Slavs from the forests of Northern-Europe, Sarmatians and Hunds from the Eurasian Steppe ..... The ephemeral « Successor-States » which were set up on the former territories of the Roman Empire by these barbarian war-bands shared the stage of history with the Church during the interregnum between the disappearance of the Hellenic Society and the emergence of our Western Society - an interregnum which was the barbarians' « heroic age ».

(١٠) Ibid., p. 62 : « The evidential Value of « Universal Churches » is absolute, because churches belong by nature to the future as well as to the past. The evidential Value of « Universal States » and « Volkerwanderurgen » is conditional ».

(١١) I b i d., pp. 90 Seq : "The information which we now have obtained by investigating the « affiliations » of all the living societies will enable us at once to identify the extinct Societies which are represented to-day by certain fossils ». Minoan, p. 92 ; Sumeric, p. 104 ; Babylonic, p. 115 ; Andean, p. 119 ; Yucatec, Mexic and Mayan, p. 123 ; Egyptiac, p. 128.

عرفها التاريخ ، فقد امتدت من الألف الرابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس للميلاد ، وعلى هذا فان مسافتها تبلغ ثلاثة أمثال مسافة الحضارة الغربية حتى يومنا هذا • وهى فوق هذا حضارة مقدر لها الخلود ، ولا يوجد عقل بشرى يستطيع أن يدرك أبعادها وأسرارها الدفينة ، وهى التى يحق لهرمها الأكبر أن يقول : « قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن (١٢) » •

ثم ينتقل توينبى الى الدراسة المقارنة للحضارات فى مراحل مولدها فنموها ثم سقوطها • وفى مولد أو تكوين (genesis) الحضارة يؤمن الكاتب بقانون « التحدى والاستجابة » (Challenge and Response) وهو يرفض الرأى الشائع بأن الحضارة تولد فى البيئات التى تتيسر فيها ظروف المعيشة للانسان ، ويرى أن مولد الحضارة عملية خلق تتضمن تغيرات حتى فى عوامل الزمن نفسه • ويضرب لنا مثلا على هذا بأن الرأى السائد منذ القدم أن الحضارة قد نشأت أول ما نشأت فى مصر بسبب

---

(١٢) Ibid., pp. 128-129 : « Finally there is one representative of the species which have lived through a longer span than any other whose history we know, and this, apparently, without ever entering into the relationship either of " affiliation " or of " apparentation " . This is the society which emerged in the lower Valley of the Nile, between the First Cataract and the Mediterranean, during the fourth millennium B.C., and which became extinct in the fifth Century of the Christian Era after existing, from first to last, at least three times as long as our own Western Society has existed so far ..... All the more triumphant is the immortality which it has sought and found in stone. It seems probable that the Pyramids, which have already borne inanimate witness to the existence of their makers for four or five thousand years without yielding to the ravages of Time, will continue steadfastly to perform their Atlantean task for hundreds of thousands of years to come. It is not inconceivable that they may outlast Mankind itself, and that, in a world where there are no longer human senses to receive their testimony or human minds to comprehend it, they will testify still of the Egyptian Society that made them : « Before Abraham was, I am».

خصوبة أرضها ووفرة مياه نيلها ، ولما وصف الكتاب الاغريق أرض مصر وصفوها على أنها « هبة النيل » • غير أن الأبحاث العلمية الجادة تشير الى أن هذا القول ينطوى على خطأ كبير ، ذلك لأن حضارة مصر الزراعية ليست هبة من النيل بقدر ما هى حصيلة جهود الانسان المصرى الذى أقام الجسور وروض النيل وحطم الأحراج وأقام المقاييس ورصد النجوم وتوصل الى حسابات السنة الشمسية وتقاويمها ، أى أن الانسان المصرى هو الذى سيطر على الطبيعة وأخضعها لخدمة الأغراض الانسانية (١٣)

ويضرب الكاتب أمثلة عديدة لتوضيح جهود الانسان البطولية فى صراعه مع الطبيعة وتحدياتها فى أواسط أمريكا وفى سيلان وشمالى الجزيرة العربية وفى نيو انجلند والكمبانا الايطالية وكابوا • ويستخلص من هذه الدراسات المتتابعة أن « اليسر هو عدو الحضارة (١٤) » ، بمعنى أن الظروف الطبيعية الميسرة ليست هى التى تولد الحضارة وتفجر التقدم ، وانما العكس هو الصحيح بمعنى أن الظروف الطبيعية القاسية وتحدياتها هى التى تحفز الانسان على العمل والخلق • والى جانب الظروف الطبيعية القاسية يساعد انتقال الحضارة من موطنها الأصلى الى أرض جديدة على التقدم ، ويطلق الكاتب على هذا العامل « حافز الأرض الجديدة » (Stimulus of New Ground) • ويضرب الكاتب أمثلة على ذلك بالحضارة البابلية التى اكتمل كيانها فى آشور ، وبالحضارة الايرانية التى اكتملت فى الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى ، وبالحضارة البيزنطية التى ازدهرت عندما انتقلت الى روسيا والبلقان • وهنالك حافز آخر يساعد على تقدم الحضارة وهو ما يسميه الكاتب باسم « حافز الضربات المفاجئة » (Stimulus of Blows) ، فالدول التى تجتاحها جيوش الامبراطوريات

---

(١٣) Toynbee, A., Op. Cit., Vol. II, p. 2 : « The agricultural Egypt of modern times is as much a gift of Man as it is of the Nile ».

(١٤) Ibid., p. 31 : « We have now perhaps established decisively the truth that ease is inimical to civilization ».

القوية ، سرعان ما تفيق من هول الكارثة وتعمل على بناء نفسها من جديد للارتقاء بمستواها لكى تتمكن من مواجهة تحديات المستقبل بجهد بطولى خارق • من قبيل ذلك فى التاريخ القديم ما حل بروما على يد قبائل الغال، ثم استيعابها للدرس عندما أعدت العدة وخاضت الحرب ضد الحلف السامنى ثم فرضت سيادتها على ايطاليا كلها • ولدينا مثل آخر فيما أصاب العثمانيين على يد تيمورلنك فى واقعة أنجورة ، ولكن العثمانيين وجدوا فى هذه الضربة المفاجئة حافزا لهم ليقوموا من هذه الكبوة فيحققوا مكاسب مذهلة ، فبعد نصف قرن من هذه الكارثة تمكن محمد الفاتح من دخول القسطنطينية ظافرا (١٤٥٣ م) •

وهناك حافز آخر يولد شرارة الحضارة هو حافز « الضغوط الخارجية » (Stimulus of Pressures) : : مثال ذلك الحضارة السومرية ، فلقد قامت حضارة سومر وأكاد على يد أسرة سومرية مقرها بلدة أور (Ur) فى قلب الحضارة السومرية • ثم أعيد بناء هذه الامبراطورية بعد فترة التدهور على يد العموريين فى عاصمتهم بابل « بوابة الآلهة » ، وهى نفس البوابة التى شهدت ضغوط البدو العموريين من استبس شمالى الجزيرة العربية الى أرض شنعار (بلاد ما بين النهرين) • وهذا يدلل على أن القوة السياسية قد انتقلت فى اطار الدولة السومرية من الداخل انى تلك البقعة التى كانت معرضة للضغوط الخارجية (١٥) •

وهنالك أيضا حافز « القصاص » (Penalization) الذى يولد بدوره شرارة الحضارة ، بمعنى أن الجماعة التى تتعرض للعقاب أو القصاص من جانب جماعة أخرى متسودة ، تحاول التعويض عما أصابها من خطر بابتكار أساليب جديدة لفرض وجودها واثبات كيانها ، تماما مثلما يحدث فى حالة الانسان الفرد الضرير الذى يجاهد حتى ينجح فى تعويض النقص الذى يعانيه بتنمية حواس أخرى كاللمس والشم والسمع•

(١٥) Ibid., p. 133 : " Thus, in the Sumeric Universal State, political power passed from the interior to the march on which the heaviest external pressure was being exerted ».

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث عندما اضطهد الرومان الجماعة المسيحية الباكرة من العبيد وفقراء القوم ، فلقد سعى هؤلاء المضطهدون الى التماسك والتسلح بقوة الإيمان حتى قدر لهم فى نهاية الأمر أن ينتصروا عندما أصبحت ديانتهم هى الديانة الرسمية للامبراطورية كلها : « ان قمع العبادة المسيحية على السطح فى روما الوثنية هو الذى دفع المسيحيين الى أن يخلقوا روما مسيحية فى الكهوف تحت سطح الكمبانا (بايطاليا) ، ونجحت المدينة السفلية فى أن تغلب على مدينة السطح ، مدينة التلال السبعة (١٦) » .

ان الرأى عند توينبى أنه كلما ازداد التحدى تصاعدت قوة الاستجابة حتى تصل بأصحابها الى ما يسميه باسم « الوسيلة الذهبية » (Golden Mean) : فالفئات المضطهدة فى أوربا من أتباع البروتستانتية والبرسبتارية ، عندما ازداد ضغط الكاثوليك عليهم هاجروا من أوربا الى العالم الجديد حيث أقاموا لهم « جنة جديدة » هنالك . وقد عبر عن مشاعر هذه الجماعة المهاجرة شاعر من القرن السابع عشر فى الآتى : مبينا ابتهاجهم بالابحار وراء البحار الى آفاق جديدة تحدوهم يد السماء الى بر الأمان ، بعيداً عن العاصفة المجنونة وتعنت رجال الدين المتعصبين (١٧) .

---

(١٦) Ibid., pp. 209-210 : « The prohibition of Christian worship on the surface of pagan Rome stimulated the Christians to create for themselves a new Christian Rome in the Catacombs below the surface of the Campagna ; and the city of the Catacombs eventually triumphed over the City of the Seven Hills ».

(١٧) " The listening winds receive this song :
« What should we do but sing His praise
That led us through the watery maze
Unto an isle so long unknown
And yet far kinder than our own ?
Where He the huge-sea monsters wracks
That lift the deep upon their backs
He lands us on a grassy stage,
Safe from the storm's and pretate's rage ".

وهناك مثل آخر يتضح من تحديات الحضارة الهلينية للحضارة السومرية ، فأمام اشتداد موجات التحدى المتمثلة فى مواكب غزو الاسكندر الأكبر والقياصرة الرومان من بعده ، أخذت الاستجابات تعبر عن نفسها الواحدة بعد الأخرى فى شكل الزرادشتية الفارسية ثم المذاهب المسيحية « المهرطقة » من نسطورية (أتباع نسطور) ومونوفيزية (مبدأ الطبيعة الواحدة) ، ولكنها جميعا لم توفق لأن استجاباتها كانت من صنف تحدياتها ؛ حتى جاء الاسلام وانتصر على هذا التحدى الهلينى وأعطى الشام « حضارة عالمية » فى شكل الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية من بعدها ، وانهار الكيان الهلينى (البيزنطى آنذاك) أمام تلك القوة الفتية : « ان هرقل نفسه (القرن ٧م) الذى قضى حياته فى تأكيد منجزات الاسكندر وبومبى قد قدر له أن يعيش ليشهد بنفسه الخليفة عمر بن الخطاب يتقدم على دول القياصرة ليغير ما فعله الاسكندر وبومبى وهرقل نفسه تغييرا كان هذه المرة كاملا والى الابد (١٨) » .

ينتقل الكاتب بعد هذا الى مرحلة « نمو الحضارات » : فبعد مولد الحضارة تتوقع لها أن تنتقل الى طور النمو . غير أن بعض الحضارات لا يتأتى لها طور للنمو الكامل فيكتب عليها التجمد لتصبح « حضارات أسيرة » (Arrested Civilizations) : ومن أمثلة هذه الحضارات البولونيزية والاسكيمو والبدو والاسبرطيين . لقد قامت هذه الحضارات نتيجة لقانون التحدى والاستجابة ، ولكنها تجمدت فى استجاباتها لأنها ظلت على ما هى عليه دون محاولة لاستخدام الحكمة فى استغلال ظروف التحدى . ولنأخذ الاسبرطيين هنا مثلا : لقد نجح الاسبرطيون فى السيطرة

---

(١٨) Ibid., p. 287 : « The Emperor Heraclius himself, who had spent his life in vindicating the work of Alexander and Pompey, was condemned by a malicious Destiny not to taste of death until he had seen " Umar the Successor of Muhammad the Prophet coming into his Kingdom to undo Alexander's work and Pompey's work and Heraclius's own work - and this utterly and for ever ».

على خمسى شبه جزيرة البلوبونيز ، ولكنهم تباعدوا فى نظمهم عن بقية العالم الهلينى بنظامه المعروف فى شكل دويلة ــ المدينة . ففى القرن الثامن ق.م. كان على دويلات المدن الاغريقية أن تبحث لسكانها عن مستعمرات لتواجه بها احتياجات السكان . ولكن اسبرطة تقاعست ولم تحقق لنفسها مستعمرات كبقية جاراتها الهلينيات ، اللهم الا مستعمرة تارنتوم . ولما أن ضغطت زيادة السكان على اسبرطة ، لم تفكر فى حل مشكلاتها بالاتجاه الى ما وراء البحار مثلما فعلت زميلاتها الهلينيات ، وانما راحت تتسلل عبر الممرات الجبلية وتقوم بغزو جاراتها الصغيرات وأولى ضحاياها كانت مسينا (٧٣٦ ــ ٧٢٠ ق.م.) . ولكن المسينيين سرعان ما هبوا يدافعون عن كيانهم ، ولكن اسبرطة قمعتهم فى قسوة بالغة . وتجددت المقاومة بعد ذلك ودارت الحرب الثانية بين المعسكرين ، وسقطت مسينا ثم وزعت أرضها على الاسبرطيين ، وصار أهلها عبيدا للأرض ، بينما تفرغ الاسبرطيون للحياة العسكرية الصارمة وفقا للنظم التى سنها لهم زعيمهم ليكرغوس (٥٥٠ ق.م.) . ووفقا لهذه القوانين انصرف هم الاسبرطيين كلية الى تخريج جماعات المحاربين من طبقة « النظراء » من المعسكرات . وهذه الطبقة لا تعتمد على أصول المولد أو الميراث وانما تقوم على صلاحية التفوق العسكرى فحسب . ان القانون الاسبرطى يمثل تعاميا شديدا لقانون الطبيعة البشرية ، فهو يفوض الدولة فى اختيار الزوجات للشباب الاسبرطى ، بهدف الحفاظ على نقاوة الجنس المتمرس فى العسكرية الخشنة . وكانت الدولة تأخذ الأطفال الاسبرطيين وترسل بهم الى « طواحين الدراسة » فى سن السابعة . ولم تستثن الفتيات من دخول هذه المعسكرات ، بل كان عليهن أيضا التسابق فى ميادين الرياضة وساحات التدرب على الحرب وهن عاريات تماما أمام الجمهور (١٩) .

---

(١٩) Toynbee, A., Op. Cit., Vol. III, p. 59 : « Spartan girls, like Spartan boys, were trained on a competitive system in athletics ; and girls, like boys, competed naked in public before a male audience ».

كان النظام الاسبرطى يهدف الى تحقيق تفوق كمى ونوعى فى آن واحد لقلة عسكرية تتحكم فى السواد الأعظم من الشعب الاسبرطى ، وكان السلاح أو الحافز الاسبرطى الأوحد فى تحقيق أهدافه هو «العقاب» الصارم • ولكى يحقق الاسبرطيون هدفهم الكمى أعفوا ولى الأمر لثلاثة من الأبناء من التعبئة وقت الحرب ، وأسقطوا عن ولى الأمر لأربعة أبناء كل الالتزامات نحو الدولة • وفى مجال الهدف النوعى كان المجتمع الاسبرطى لا يتحرج ، بل انه كان يشجع ويبارك اقدام زوج ما على تحسين نسله بأن يستضيف شابا عرف بفتوته وقوة بنيته لكى تحمل زوجته منه ابنا • ويطلق الكاتب على هذا الشاب المستضاف لفظة « الحيوان الآدمى » (٢٠) • ويبدو أنه كان للزوجة الاسبرطية أن تلجأ الى هذا الأسلوب ان هى شعرت أن رجلها لم يعد نداً لتلك المهمة « القومية » الكبرى • كذلك كان من بين دعائم النظام الاسبرطى أن يقوم الفتية الأكبر سنا بالاشراف على تدريب الأصغر سنا ، حتى يصل الفتى الى سن العشرين حيث يكون عليه أن يجتاز الامتحان الصعب بنجاح فينضم الى طبقة « النظراء » أو « الأنداد » • ويظل الواحد منهم فى الخدمة العسكرية حتى يبلغ الأربعين ، وهو دواما عرضة للعزل ان حامت حوله شبهة الجبن فى الحرب •

---

(٢٠) Ibid., p. 60 : « A Spartan husband won popular approval, instead of exposing himself to public condemnation, if he took pains to improve the quality of his wife's progeny by arranging that her children should be gotten upon her by a sire who was a better man - or human animal - than her husband himself ». See Plutarch, Life of Lucurgus, ch.XV : « The Spartan Social reformer saw nothing but Vulgarity and vanity in the sexual conventions of the rest of Mankind, who took care to serve their bitches and their mares with the best Sires that they can manage to borrow or hire, yet lock their women up and keep them under watch and ward in order to make sure that they shall bear children exclusively to their husbands — as though this were a husband's sacred right even if he happens to be peeble-minded or senile or diseased" .

ويرى توينبى شبها كبيرا بين هـذا النظام الاسـبرطى وبين نظـام الانكشـارية عند العثمانيين ، فكلاهما يسـتند الى أسس واحدة هى : الاشراف ، والانتقاء ، والتخصص ، والمنافسة ، والحوافز السلبية المتمثلة فى العقاب والردع ، والحوافز الايجابية المتمثلة فى الثواب • وقد غلبت الروح العسكرية على أفراد هذه الطبقة الى حد أنه لم يكن يسمح للواحد منها بالنوم فى بيت الزوجية حتى فى ليلة الزفاف ، ولم يكن يجرؤ علـى تناول طعام الغداء مع زوجته ، لأن داره وهمه الأكبر هو المعسكر •

لقد رأى الآثينيون فى هذا النظام الاسبرطى قسوة بالغـة ومجافاة للطبيعة الآدمية للانسان الفرد • ان القانون الليكورغى يمثل حكما مضادا للطبيعة ، وقد ظل يتحدى نواميس الطبائع الانسانية لمدة مائتى عـام • لقد كان الشعار الاسبرطى،كما جاء على لسان واحد منهم هو (داماراتوس) فى حديثه الى (اكزركسيز) الفارسى يوم واقعة (ثرموبولاى) ، « الموت أو النصر » • ويستدل أيضا على تمسك الاسبرطيين بهذا الشعار مـن رواية هيرودوت عن بطولة ليونيداس ورجاله الثلاثمائة فى يوم ثرموبولاى ، ومن قصة ذلك الطفل الاسبرطى الذى لجأ الى اخفاء ثعلب صغير تحت ملابسه خوفا من قادته فى المعسكر ، وجعل يتحمل تقطيع الثعلب لاحشائه دون أن يصرح بألمه ، خوفا من وصمة الجبن • يضاف الى كل هذا أن الفتى الاسبرطى كان يمضى العامين السابقين على تخرجه من المعسكر فيما عرف « بالخدمه السرية » ، ألا وهى قيامه بالتجسس على طبقة انهيلوت من رقيق الأرض لكى يقبض على من يتكاسل منهم فى العمل ويقطـع رأسه • وقد كان من مدعاة الفخر لدى أفراد طبقة « النظراء » أن يدوسوا بأقدامهم على أعناق العبيد ورقيق الارض وفقراء المجتمع • ولذا فـان هذه الطبقات من « الأدنياء » كانت تحلم باليوم الذى تتمكن فيـه من

الانقضاض على هذه القلة العسكرية المتسلطة لتأكل لحم أفرادها أحياء(٢١).

إن مجتمعا كهذا المجتمع لا يكاد يعرف شيئا عن أية اهتمامات انسانية كالفن والموسيقى والفلسفة ، وانما كان هدفه الأوحد تصميم تلك القوالب الفولاذية لصب الأفراد فيها ودمغها بمس أفران الحديد والنار . ألم يحرم الاسبرطيون على شبابهم المشاركة فى الدورات الاولمبية؟ نعم ، لقد تمكنت اسبرطة من الحفاظ على كيانها حتى القرن السادس ق.م. ولكن المتغيرات الكبرى التى حلت فى القرن السادس فى مصر وفارس وفينيقيا واتروسكيا ، حتمت على دويلات المدن الهلينية أن تطور من أساليبها ونظم حياتها لمواجهة التحديات الجديدة : فاتجهت بعضها الى التجارة الخارجية أو الى الصناعة ؛ وكانت آثينا فى مقدمة الدويلات التى أجرت تطويرا لدساتيرها ونظمها الاجتماعية . ولكن اسبرطة تحجرت على نظامها العتيق الذى كان قد أرساه لهم ليكرغوس ، ولم يبد الاسبرطيون حراكا فى أى اتجاه آخر يواكب روح العصر . وكان على اسبرطة أن تواجه العالم الهلينى جميعا وهو يتحداها ويتحدى جمودها . ودارت حروب البلوبونيز بين اسبرطة وآثينا . حقيقة ان اسبرطة قد خرجت ظافرة على آثينا فى حرب ٤٣٨ ــ ٤٠٤ ق.م ، ولكن النتيجة الحقيقية للحرب كانت شيئا آخر عبر عنه اجيس (Agis) ملك اسبرطة فى قوله : « ان هذه هى بداية الشرور لكل بلاد هلاس » . وبالفعل فان الوقت الذى أطاح فيه الاسبرطيون بالآثينيين يوافق نفس الوقت الذى بدأت فيه الامراض

---

(٢١) Ibid., p. 66 : « While Sparta demanded, and duly evoked, the manly heroism of a Leonidas and his Three Hundred in order to cover the Spartan name with incomparable military glory, she equally demanded — and did not fail to evoke — the juvenile criminality of her Secret Service in order that the tiny minority of Spartiate «peers» might keep their feet on the necks of a numerically overwhelming majority of « Inferiors » and « Dependants » and « New Members » and « Serfs » who would have been delighted, if ever they had the chance, « to eat » their handful of masters « alive » ».

الاجتماعية تظهر خبث دائها فى جسم اسبرطة . وقدر لنظام ليكرغوس أن ينتحر فقتل نفسه بنفسه . لقد ظل الاسبرطيون يعيشون على أحلام القديم ، وزحفت الجحافل المقدونية والرومانية من بعدها لتحطم ما قد تبقى من كيان اسبرطى . ان الاسبرطيين ـ والحال هذه ـ « شعب بلا تاريخ » .

بعد هذا يمضى توينبى لشرح معايير النمو : فالنمو ينبغى أن يكون من خلال مسير يمضى بالمجتمع من تحد الى استجابة ثم الى تحديات جديدة واستجابات لهذا الجديد . ومن أبرز معايير النمو الحضارى ازدياد سيطرة الانسان على البيئة التى تحيط به بظروفها الطبيعية المختلفة ، ثم تطوير أسلوب معالجته لتلك الظروف حتى تكون صنوف الاستجابة نجاحا مقابل صنوف التحديات بالنجاح أيضا . وهذا النجاح المتولد بين كل تحد واستجابة هو التقدم الحضارى ، بمعنى أنه المحك الأمثل الذى يجعل من أية حضارة نامية صاحبة الإرادة فى تقرير مصيرها وذلك عندما يتأتى لها الاستيعاب لبيئتها وعناصر تحدياتها وحقل صراعاتها (٢٢) .

كما أن النمو الحضارى يتأتى على يد أفراد خلاقين أو على يد أقليات مبتكرة ، فهى التى تحدد نوعية الاستجابة الناجحة للتحديات ، لتمضى بالمجتمع قدما ، تجر من ورائها تلك الأغلبية الكسولة « غير الخلاقة » . إن النمو الحضارى هو دينامية الحياة ، وهى من فعل الأقلية النشطة ، أما بقية أفراد المجتمع من الخاملين فهم شركاء الملايين من أهل «الكهف» فى كل أركان الأرض . ويجاهد الخلاقون لكى يجذبوا من ورائهم

---

(٢٢) Ibid., p. 216 : « Growth means that the growing personality of civilization tends to become its own environment and its own challenger and its own field of action ».

هؤلاء الكسالى لكى يلحق المجتمع بالموكب الحى (٢٣) .

ويفرد توينبى مكانا رحبا لبعض الأفراد الـذين قادوا تلك القلـة المجاهدة على درب التقدم ، الذين اضطر كل فرد منهم فى بداية الأمر الى الإنسحاب ثم عاد على المسرح من جديد يعلن الثورة للأخذ بيد الجماعة نحو الأمام . ومن بين هؤلاء العمالقة : القديس بولس ، القديس بندكت ، بوذا ، النبى داود ، صولون الآثينى ، يوليوس قيصر ، ليوقورش ، بطرس الأكبر الروسى ، لينين ، غاريبالدى ، هندنبرج البروسى وغيرهم كثيرون .

ثم ينتقل الكاتب الى مرحلة تدهور الحضارات وانهيارها :

وهى مرحلة تبدو أكثر وضوحا من سابقتها مرحلة النمو ، وهى فى هذا الوضوح جلية مثل مرحلة التـكوين . فمن بين الـ ٢٦ حضـارة السالفة الذكر قبض على نمو خمس منها ، وأجهضت أربع أخر . كما أن ١٦ من هذه الحضارات قد توفيت ودفنت ، ولم يبق منها سوى عشر وهى : الحضارة الغربية (الأوربية) ، الحضارة الأرثوذكسية الشرقية ، الحضارة الأرثوذكسية الروسية ، الحضارة الإسلامية ، الحضارة الهندية ، حضارة الشرق الأقصى (الصين) ، الحضارة اليابانية ، الحضارة البولونيزية ، حضارة الاسكيمو ، حضارة البدو الرحل . وتبدو البولونيزية والبدوية اليوم فى مرحلة الاحتضار ، كما أن سبعا مـن الثمان الباقيات تتعـرض أحيانا لخطر الابادة وأخرى لخطر الامتصاص على يد الحضارة الغربية . وأوضح علامات التآكل والتصدع فى هذه الحضارات ظاهرة جمع شتات حضارة ما منها فى اطار وحدة سياسية قهرية فى شكل « دولة عالميـة » ، وقد جرت محاولات مماثلة بين موسكو ونوفجورد ، وفى الدولة العثمانية،

---

(٢٣) Ibid., pp. 242-243 : « In every growing civilization, even at the times when it is growing the most lustily, the great majority of the participant individuals are in the same stagnant quiescent condition as the members of a primitive society which is in a state of rest ».

وفى امبراطورية تيمورلنك • ويرى الكاتب فى « الدولة العالمية » علامة على طريق التدهور والانهيار ، وهذا الانهيار ليس من فعل تحديات حضارة أخرى قوية بقدر ما هو نتيجة للتصدع والافلاس من الداخل(٢٤)

ويرى توينبى أن الحضارة الغربية لم تصل بعد الى مرحلة « الدولة العالمية » ، وانما هى تمر حاليا بفترة « الاضطرابات » • وهذه الاضطرابات وليدة عامل انتحارى هو توسع الغرب فى حركة الاستعمار على وجه المسكونة دون حساب على تربة حضارات مائتة أو متهالكة (٢٥)

ان التدهور هو محصلة الفشل فى محاولة العلو بالانسان من درك الحيوان الى مستوى آدمى شبيه بتلك الشركة المأثورة عن « مجتمع القديسين (٢٦) » • وهذا الفشل هو فقدان القدرة على الخلق وافلاس القادة ، وذبول القوة الدافعة عند الجماهير : « فحيث لا خلق ، ينتفى التماثل (٢٧) » • ويأتى تمزق المجتمع دواما من الداخل ، عندما تشعر البروليتاريا الداخلية بأن السحر البراق الذى كان فى أيدى قادتهم قد علاه الصدأ ولم يعد يفيد • والتصدع لا يأتى من الخارج على يد حضارة أجنبية فتية ، وينحصر ما تقوم به تلك الحضارة الفتية القوية فى توجيه

---

(٢٥) Toynbee, A., Op. Cit., Vol. IV, pp. 2-3 : « One of the most conspicuous of the marks of disintegras is a phenomenon of the last stage but one in a decline and fall, when a disintegrating Civilization purchases a reprieve by submitting to a forcible political unification within the framework of a « Universal State » ».

Ibid., p. 4 : « Mortality, behold and fear !
What a change of flesh is here ! ».

(٢٦) Ibid., p. 5 : « The breakdowns are failures in an audacious attempt to ascend from the level of a Primitive Humanity, living the life of a social animal, to the height of some superhuman kind of being in a Communion of Saints ».

(٢٧) Ibid., loc. cit., : « Where there is no creation, there is also no mimesis ».

ضربة لكيان قد انتحر بالفعل . « ان أكبر عدو للانسان هو الانسان ذاته (٢٨) » .

وعلى هذا فإن السبب الأول فى انهيار الحضارة هو فقدان الإنسجام بين عناصر مكوناتها ، مما يتأتى عليه فقدان المقدرة على تقرير المصير(٢٩). ومن دواعى هذا الانسجام ظهور تيارات اجتماعية جديدة ثم دخولها الى حياة مجتمع ما ، ثم محاولة اقحام هذا الجديد بعلاته على نظام لم يكن أصلا ليستوعب هذا الجديد ، ولا هو يتسع له . وهذا شبيه «بالنبيذ الجديد فى القنائن العتيقة(٣٠) » . ولكيلا تتحطم «القنائن العتيقة» ينبغى عند ادخال قوى دينامية جديدة أو مؤثرات خلاقة أن يصاحب ذلك وفى نفس الوقت اعادة بناء كل النظم القديمة على أساس يتمكن معه من مواكبة الجديد والانسجام معه . وهذا يعنى ضرورة الاستجابة الصحيحة التى تتصدى للتحديات الجديدة.

من عوامل انهيار الحضارة أيضا أن القلة التى اتسمت بالخلق واستجابت لتحد فى القديم تمسى أقل استجابة للتحديات الجديدة . وهنا تظهر قلة جديدة تستطيع مجابهة التحدى الجديد . ولذا فان القلة « القديمة » تقف موقف المعارضة من القلة الثانية ، لأن الأولى قد احتلت مناصب قيادية هامة لا ترغب فى التنازل عنها ، ويتشنج هؤلاء القدامى على المجازف أى أنهم يتخذون موقفا سلبيا غير أخلاقى يتسم بالأنانية وحب

---

(٢٨) Ibid., p. 120 : « The greatest danger to Man is Man »., as quoted from C.F. Volney's Les Ruines, : « La source de ses calamités ..... réside dans l'homme même, il la porte dans son coeur ».

(٢٩) Ibid., p. 132 : « A society breaks down through a loss of harmony between its parts which is paid for by the society as a whole in a loss of self-determination ».

(٣٠) Ibid., p. 133, quoted from St. Matthew, ix. 16-17 : « Neither do men put new wine into old bottles - else the bottles break and wine runneth out and the bottles perish ; but they put new wine into new bottles, and both are preserved ».

الذات • والسلبية تجاه الحاضر تنبع عند بعضهم من افتتان بالماضى ، وهذا الافتتان ضرب من ضروب عبادة الأصنام ، التى ان هى الا عبادة المخلوق لا الخالق • وقد يتخذ هذا الاثم شكل عبادة الشخص لذاته أو لتراث مجتمعه فى فترة معينة بالذات ، دون النظر الى القوانين الدينامية التى تفرضها التحديات الجديدة وضرورة الاستجابات بأساليب جديدة أيضا • وأسوأ هذه العبادات الصنمية هى عبادة الذات ، ذلك أنه ما لم يعـل الفرد على ذاته المائتة ليتحلى بتطلعات انسانية أرقى ــ على حد تعبير تنيسون ــ فان الفرد يصبح عابدا لصنم نفسه ، وهو بهذا يبتعد عن الحياة وعن المشاركة مع الآخرين فى معبده النرجسى الخاص ، تماما مثلمـا يفعل أو كان يفعل واحد من الرهبان العموديين الذين يعلقون أنفسهم على قمة أحد الأعمدة ويقبعون هنالك فى انفصام مزر عن مجتمع اخوانهم من البشر (٣١) •

وأبرز مثال فى التاريخ على عبادة الذات والتشنج على زمن تاريخى قد باد ، هم اليهود • فقد بدأ تاريخهم فى اطار الحضارة السورية ، وبلغ قمته على عهد أنبيائهم ، ثم نجح بنو اسرائيل ويهوذا فى الوصول الـى فكرة التوحيد ، فملأ الغرور رأسهم وادعوا أنهم « شعب الله المختار » • وقد أعماهم هذا الزهو فتردوا فى خطأ مبين هو عبادة ذاتهم والتثبت عند مرحلة تاريخيـة قد عفى عليهـا الزمان ، وتخيلوا من خلال هذا الوهم

---

(٣١) Ibid., pp. 261-262 : « If it is indeed the truth

« That men may rise on stepping-stones
of their dead selves to higher things, »

than the idolator who commits the error of treating one dead self, not as a stepping-stone, but as a pedestal, will be alienating himself from the life of God as conspicuously as the Stylite devotee who maroons himself on the Summit of a lonely column dissevers himself from the world of men ».

الزائف أن السماء تمطرهم الإمتياز والرفعة على سائر مخلوقات الأرض ، فأصيبوا لهذا كله بالعقم (٣٢) .

كذلك تردت فى نفس الخطأ مدينة آثينا التى ركبها الغرور على أنها « المعلم الأول لليونان جميعا » وظلت متجمدة عند منجزات صولون وعصر بركليز « الذهبى » وغفلت عن متطلبات التغيير وتبدل الأحوال . ولذا فانها لم تلبث أن اصطدمت بأسبرطة ثم انهارت سنة ٤٠٤ ق.م ، ثم وطأتها حوافر الخيل المقدونية وأجهزت عليها فى النهاية الفيالق الرومانية . ان آثينا لم تتعلم شيئا من الكوارث التى ألمت بها تباعا ، ولم تحاول أن تحرر نفسها من رق « عبادة نفسها » ، فظلت تعيش فى أوهام الماضى تجتر مواعظ بركليز ومقننات صولون (٣٣) .

من عوامل انهيار الحضارات أيضا ازدياد دق طبول الروح العسكرية لتغلب روح الحرب على نفوس أبناء المجتمع ، ويؤدى ذلك الى الانتحار (Suicidalness of Militarism) والأمثلة على هذا كثيرة من واقع سجلات الاشوريين (القرن ٧ ق.م) ، ومن سيرة شرلمان وتيمورلنك ، وغيرهما كثير .

ولا يقل خطرا عن العوامل السابقة آفة « سكرة النصر » ومن أمثلة ذلك ما أقدم عليه الكرسى البابوى فى روما فى صراعه ضد السلطة الزمنية فى ألمانيا . وأبرز رجالات ذلك الصراع هو هلد براند (غريغورى السابع) الذى أسكره النصر بعد نجاحه فى إذلال خصمه الألمانى هنرى الرابع عند

---

(٣٢) Ibid., pp. 262-263 : « In this delusion - which was a moral as well as an intellecual fault — the Jews « rested on their oars » when they were called upon to respond to a new challenge ..... They persuaded themselves to be God's Chosen People ..... ».

(٣٣) Ibid., p. 264 : « On the political plane no culmination of disasters ever availed to shake Athens out of the " Sacred egoism " which Pericles had taught her to regard as a duty to herself that her past services to Hellas entitled her to cultivate in perpetuity ..... ».

قلعة كانوسة ، فتخطى كل الحدود وجاوز صلاحياته • وقد أدى به هـذا الغرور الى المنفى ، وجلب موقفه الضياع لجهود البابوات المصلحين من أسـلافه ، وأدى أيضا الى خراب للمدينة على يد حليفه المتهور روبرت جويسكارد النورماندى • لقد جر هلد براند ـ بسبب طموحه الزائد وغروره الشخصى ـ الخراب على روما وعلى الكنيسة الغربية كلهـا • واتسع الصراع على يد تلميذه انوسـنت الرابع فى صراعه مع فردريك الثانى فامتد لهيب العداوة من مذبح كاتدرائية القـديس بطرس فى روما ليغلف غرب أوربا اللاتينى جميعـا (٣٤)

بعد الإنهيار يأتى دور الإحتضار • ومن مظاهر ذلك انتشار الفصام فى جسم المجتمع فيتمزق كيانه • ويواكب هذا الخلل انفصام فى الروح حيث تظهر الفلسفات الانهزامية مثلما كانت الحال فى القديم مع الابيقوريين والكلبيين والدواقيين ، وقد يتطرف هذا الاتجاه الى حد « حب الموت » تحت ستار « الاستشهاد » وما هو فى حقيقة الامر الا ضرب من ضروب الانتحار ، هروبا من مشاكل الحياة وتحدياتها • وتنعكس مظاهر التمزق على انتاج المجتمع فترى فيه الغث فى الأدب والسوقية والتبربر فى الفن والاسفاف فى الموسيقى والمسرح •

تلكم هى « أوقات المتاعب » التى تشهد قيام « الدولة العالمية » • وفى ثنايا هذه الأوقات تنشأ « الكنيسة العالمية » التى تستغل نظام الدولة العالمية فى تقوية ذاتها حتى تصبح هى الأخرى مؤسسة كبرى سرعان مـا تنافس الدولة • ولذا فان رجالات « الدولة العالمية » سرعان ما ينقلبون على تلك « الكنيسة العالمية » بسبب ازدياد نفوذها ، ثم انهم يعملون على

---

(٣٤) Ibid., p. 353 : « In 1085 Rome had just been looted and burnt by the Normans, when the Pope (Hildebrand) had called in to assist him in a military struggle which had spread from the steps of St. Peter's altar — the Papal treasury — until it had engulfed the whole of Western Christendom ».

انتخلص منها فيلصقون بها شتى الاتهامات ويشيرون اليها على أنها المسئولة عن كل الكوارث التى تحل بالمجتمع • ويتضح هذا الصراع الأزلى فى تلك الأحداث التى وقعت فى القرنين الثالث والرابع للميلاد بين الامبراطورية الرومانية (الدولة العالمية) وبين المسيحية (الكنيسة العالميـة) • ويرى توينبى أن « الكنيسة » لها ما يبرر وجودها لأنها الاطار الوحيد الذى يحافظ على ما قد تبقى فى الدولة من حضارة ، فهى أشبه ما تكون بالشرنقة التى تصل بين مرحلة هلاك حضارة ومولد أخرى (٣٥) •

وعندما يلقى الكاتب نظرة على الحضارات المتبقية فى عالم اليـوم (١٩٥٢ م بالنسبة لتوينبى) يرى فى خلفية كل منها « كنيسـة عالمية » تمكنت من خلالها من أن تدخل بالبنوة فى أحضان حضارة أكثر عراقة : فحضارتا المسيحية الغربية والارثوذكسية قد تسللتا عن طريق « الكنيسة » الى الحضارة الهلينية ، ودخلت بلاد الشرق الاقصى عن طريق الماهايانـا (Mahayana) الى الحضارة الصينية ، ودخلت الهند عن طريق «الكنيسة» الى الحضارة الهندوكية ، ودخل الايرانيون والعرب عن طريق الاسلام الى الحضارة السورية •

ان المهمة التى تضطلع بها « الكنيسة العالمية » مهمة حضارية بالغـة الخطورة ، ذلك أنه فى حين أن « الدولة العالمية » تجاهد للمحافظة على توازنها خوفا من السقوط النهائى بأساليب القمـع والردع والتخويف والاحباط ، تمد « الكنيسة » يدها الى الطاقات الانسـانية المتخوفـة والمتراكمة وتفتح لها آفاقا جديدة أو قنوات لتوجه من خـلالها زفرات الضـيق فى أسلوب ايجابى • ويتتابع عمل « الكنيسة » على مراحل ،

---

(٣٥) Toynbee, A., vol. VII, p. 393 : « The writer of this Study had to confess that he, too, had been satisfied for many years with their rather Patronizing view of the Churches' rôle and nature ; and he still believed that this conception of Churches as Chrysolises, unlike the conception of them as cancers, was true as far as it went ..... ».

تبدأ « بالحمل » أى امتصاص الطاقات التى تعجز الدولة عن استغلالها نظرا لاصابتها بالشلل ، ثم تأتى مرحلة « الهضم » وتوجيه الطاقات فى قنوات تتسع لتفريغ الامكانيات المكبوتة واستغلالها استغلالا ذكيا • وهكذا فانه بينما تأخذ « الدولة العالمية » فى الهبوط تأخذ « الكنيسة العالمية » فى الصعود •

وأخيرا ينتقل الكاتب الى معالجة « الصدام » بين الحضارات ، ويكرس مسافة كبيرة لمعالجة الحضارة الغربية • إن شعوب البلدان الأخرى ــ كما يقول توينبى ــ ترى بداية الحضارة الغربية فى لحظة رسو سفن المستكشفين الغربيين على شواطىء ما وراء البحار • فعند أهل الشرق الاقصى يبرز الرجل الغربى (Homo Occidentalis) كمخلوق « بحرى » متبربر وافد من الجنوب • أما من وجهة النظر الأوربية فان حضارتهم تبدأ مذ لحظة أن « شكر الأوربى نفسه لا سمواته فى تحرره من عقلية العصور الوسطى المسيحية وأغلالها » • ومن كلا التعريفين يمكن القول أن الحضارة الغربية تبدأ فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر •

ثم يعالج الكاتب تلك الصدامات التى وقعت بين الحضارة الغربية وحضارات العالم الخارجى : فى روسيا ، والهند ، والعالم الاسلامى ، والشرق الأقصى ، ومع الهنود الحمر • ويستخلص من هذه الدراسة أن الحضارة الغربية مهددة بالانهيار • ومن بين العوامل التى أسهمت فى تصدع الحضارة الغربية عودة الأوربيين الى نظام الرق الذى كان سببا فى انهيار الحضارة الهلينية قديما ، وقد تفشت آفة الرق مع التوسع الإستعمارى الأوربى وفى ركب الثورة الصناعية • ولم يلغ الرق إلا بفضل جهود التيار الديمقراطى الذى فجره ابرهام لنكولن • أما عن الحروب الطاحنة التى اكتوت بها الحضارة الغربية فهى من فعل ثورتها الصناعية ، ولولا مقاومة النظم الديمقراطية لازداد الإستعمار جنونا • ويرجع الكاتب

انفضل فى كبح جماح الحروب الى منظمات الأمم المتحـدة ، التى يسند عليها الأمل الكبير ويعترف توينبى ـ فى مرارة ـ أن مركز الصـدارة اليوم قد خرج من أيدى الحضارة الغربية وآل الـى القوتين العظميين أمريكا وروسيا • وهو يتساءل فى حيرة : « كيف كان ذلك ؟ » وهـذا السؤال بعينه هو الذى حرك الكاتب الكبير لان يمسك بقلمه ويغـوص فى سجلات الماضى السحيق عبر حضارات الانسان لعلـه يستبصر كيف دخلت تلكم المجتمعات فى « بوابة الموت » (٣٦)

إن المبادىء التى يسير عليها أرنولد توينبى فى « دراسته » للتاريخ مبادىء مستعارة من مناهج العلوم الطبيعية التى تقوم أساسا على العلاقات الظاهرية • ذلك أن العالم الطبيعى يعالج حقائق منفصلة ومحسوسة يمكن حصرها ، وبمعنى آخر انه فى مقدور عالم الطبيعة أن يخضع الظواهر الطبيعية التى يلاحظها الى عدة حقائق يمكن حصرها ، ثم انه يمضى ليحدد العلاقات بين هذه الأجزاء ، وهى روابط تصل الحقيقة بحقيقة أخـرى خارجة عن ذاتها • ومجموع الحقائق التى يتوصل اليها عالم الطبيعة من خلال هذا المنهج تكون أمامه حقيقة أكبر لها روابط هى بدورها بحقائق كبرى أخرى من النوع نفسه • ولكى يكون عمل العالم الطبيعى واضحا وسليما فلا بد له أن يفصل بخط واضح بين حقيقة وأخرى ، بمعنى أنه لا يجب أن يحدث هنالك أى تداخل •

والملاحظ أن هذه المبادىء نفسها الخاصة بعالم الطبيعة هـى نفس المبادىء التى سار عليها توينبى فى « دراسته » للتاريخ : فهو ـ كمـا

---

(٣٦) « What was this « Door of Death » through which so many flourishing Civilizations had already disappeared ? This question led the writer into a study of the breakdowns and disintegrations of Civilizations ; and thence he was led on into a complementary study of their geneses and growths. And so this Study of History came to be written ».

لاحظنا ـ يقسم حقل الدراسة الى وحدات أو « حضارات » ، وتمثل كل منها تكاملا ذاتيـا .

ان ما يشغل توينبى فى الدرجة الأولى هى نوعيـة الإجابـة علـى السـؤال الآتـى :

هل نعتبر مجتمع غرب أوربا المسيحى استمراراً للحضارة الهلينية ، أم أنه مجتمع مختلف تماما لا تعدو صلته بالهلينية حدود « البنوة » ؟

ان توينبى يلقى بثقله وراء التساؤل الأخير بالاثبات . وهذا يعنـى أن الكاتب الكبير لا يقر القول بأن الحضارة الهلينية قد تحولت (تاريخيا) الى حضارة غرب أوربا المسيحية فى عملية تاريخية هى حقيقـة التطـور التاريخى ، تلك العملية التى انبثقت خلالها بعض العناصر ، وذبلت وماتت عناصر أخرى ، ثم انطلقت مكونات حضارية جديدة من عناصر جـديدة مشتق بعضها من ذاتها ومقتبس بعضها الآخر من منابع خارجية .

والتفسير الفلسفى لهذا القول الأخير يسمح بالقول بأن الحضـارة يمكن لها فى تطورها أن تأخذ أشكالا جديدة ، مع بقـاء بعض العناصر القديمة التى تمثل حضارة من حيث هى وقدمها . وهذا ما لا يقبلـه توينبى ، فالرأى عنده أن الحضارة التى « تتغير » تكف عن الحيـاة أو تنقرض ، لتحل محلها حضارة مغايرة تماما . وما ينطبق فى رأى توينبـى على البعد الزمانى فى نظريته ينطبق أيضا على البعد المكانى . هذا الى أن نظرية توينبى تفرض فواصل مصطنعة وقاطعة بين حضارة وأخرى ، وهذا يلغى مفهوم تفاعل الحضارات واحدتها مع الأخرى .

وتتضح حدة هذا الرأى عند توينبى عندما نطالع فى « دراسـته » ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قوله « بتحجر » الحضارة المصرية التى

كانت ، وبأنه لا يوجد اليوم من يمثلها من البشر ولم يتبق منها شيء من ملامحها العريقة (٣٧) .

ان منطلق توينبى فى « دراسته » للتاريخ هو منطلق الفلسفة الوضعية التى تفصل الذات عن الموضوع فصلا تعسفيا بحد من السكين : فالباطن والظاهر كلاهما « فردى مستقل » . ولكن هذا الفرض لا ينطبق الا على حجر أصم أو أى جماد مشابه ، ولذا فإنه لا يصلح فى معالجة التاريخ . ان التاريخ هو سجل أعمال الانسان صاحب العقل الذى يستوعب دائما أبدا ويمتص الخبرة من خارج ذاته من عوامل البيئة وظروف الطبيعة ، ثم تمتزج تلك العوامل التى كانت خارجية مع عمق الذات الانسانية لتصبح احساسا ووجدانا وفكرا . ان تاريخ البشرية ــ من هذا المفهوم ــ هو تاريخ العقل والتطور ، وبمؤدى هذا الاقتناع فإن الخبرة الماضية هى خبرة عقلية ، تصبح أمام دارس التاريخ خبرة حاضرة ، وهنا يتحول الماضى الى حاضر .

يضاف الى كل هذا أن أرنولد توينبى قد اعتمد فى مصادره لدراسة التاريخ وتتبع قصة مولد الحضارة ونموها وتدهورها اعتمادا كاملا على المصادر المكتوبة ، ولم يتوقف لجمع مادة من آثار تلك الحضارات ، وفى هذا اغفال بالغ الخطورة لمن يتعرض لمولد الحضارة ، الى حد جعل الكاتب جلين دانيال يقول : ان توينبى فى « دراسة التاريخ » قد أغفل اغفالا كبيرا قيمة الآثار القديمة وعلى وجه الخصوص ما تبقى لنا على وجه الزمان من

---

(٣٧) Toynbee, A., Op. Cit., Vol. I, pp. 128-129 : « The Egyptiac Society is not represented in the world of our day, as far as we can see, by any human heirs or assigns — not by any fossil of itself and not by any living society to which it might be either « apparented » or related in some less intimate way ».

العصور السابقة لظهور الكتابة لانسان ما قبل التاريخ (٣٨) .

كما أن الدكتور اجناشيو برنال، مدير المتحف القومى للانثروبولوجيا فى المكسيك ، قد صرخ فى ندوة عقدت سنة ١٩٦٣ عن تاريخ انسان ما قبل التاريخ فى أمريكا ، قائلا : « لقد حاولت مرة أن أطبق منهج توينبى فى مولد الحضارات ونموها وانهيارها على ما قد تجمع لدى من حقائق أركايولوجية ، ولكن وضح لى أن كل ما اعتمد عليه توينبى من مادة فى هذا الخصوص غير صحيح ومجزأ وغير مقبول لدى الاوساط العلمية العالمة . . . وانتهيت الى القول بأنه يحق لكل كاتب فى عالمنا الحر الذى نحياه اليوم أن يكتب ما يحلو له من سخافات » (٣٩) .

على أننا نود أن ننبه فى النهاية الى أن هذا النقد ، وان كان نقدا علميا وموضوعيا ، لا يقلل من شأن دراسة التاريخ عند توينبى ، لانها اضافة عملاقة شملت قصة الحضارة منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر، ولا يمكن أن نطالب المؤرخ بأن يكون فى الوقت نفسه عالما للآثار ، كما أن توينبى ــ على ما يبدو ــ لم يكرس هذه « الدراسة » لانسان ما قبل التاريخ بقدر ما هى سجل لحضارة الانسان التاريخى صاحب السجلات المكتوبة .

---

(٣٨) Daniel, Glyn, The First Civilizations, London, 1968, p. 17 : " His admittedly monumental, A Study of History markedly neglects the evidence of the monuments of history, notably the minor monuments which « time hath spared », the artifacts of the preliterate people from which prehistory is written".

(٣٩) Bernal, Ignacio, Prehistoric Man in the New world (Chicago, the University Press, 1964), p. 562 : « ..... my efforts were received with a sad smile, which seemed to say, we live in a free world and every man is entitled to a little foolishness ».